أشكال... ومرايا

. سـامي مـهـدي* .

مرآة وحيدة

في الغرفةِ مرآةْ
بإطارٍ من ذهبٍ،
وصفاءٍ كصفاءِ الينبوعِ.
ولكنْ ما جدواها
من دونِ عيونٍ تتطلَّعُ فيها،
ووجوهٍ تَمْنحها معنًى وحياة؟

خيط

رأيته يسرَحُ في المرآةْ
فيلتوي ويستقيمُ قبلَ أن يغور
فيها، ويختفي، فقلتُ للسُّعاةْ:
«هذا طريقي، فاتبعوا خطايَ
حتى نَعْبرَ الجسور
ونبلغَ المدى معًا.»
قالوا: «فكيفَ، والطريقْ
محضُ سرابٍ لاحَ في مرآة؟

لم يروا الطريقْ،
فكلُّ ما رأوا خيطٌ رماديٌّ من الظلالْ
لاحَ لهم ثمَّ اختفى
في غَبَشِ المرآة.
فلم يروا تحوّلَ الأشياءْ
ولا تغيُّرَ الأشكالِ والأسماءْ،
فقعدوا ينتظرونَ موجةً
تحملهم سرّاً إلى السماءْ.

دخول

أشكالٌ ومرايا،
أشكالٌ ومرايا،
وبقايا أسرارْ،
وعيونٌ تطرفُ،
ووجوهٌ تحرفُ، أو تنزفُ،
وقلوبٌ ترجفُ في الأغوارْ.

شخصيات

(١)

بشباكِ النزواتْ
تتصيَّدُ أصداءَ مديحٍ
من عهدٍ فاتْ.
ساحرةٌ شاختْ،
لكنْ ما زالتْ
تَنْسجُ أحلامًا
وتفكّكُ أخرى في ماءِ المرآةْ.

(٢)

امرأةٌ خرجتْ راكضةً من عينِ المرآةْ
جالتْ في كلِّ غرفِ البيتْ،
وأطالتْ جولتَها بحثًا عن ثوبْ،
كانتْ قد لبستْه امرأةٌ ثانيةٌ
دخلتْ راكضةً عينَ المرآةْ.
لكنَّ الثوبْ
ما كانَ سوى خدعةِ نسّاجٍ،
وغرورِ امرأتينْ
بكتا في الظلمةِ عاريتينْ.

(٣)

هل يقرأ كريولانسْ
مرآةَ كريولانسْ،
فيرى في كريولانسْ
مأساةَ كريولانسْ؟

مَنْ قالَ لكريولانسْ:
إنّكَ كريولانسْ،
إلاّ من هو كريولانسْ!

* - شاعر وناقد من العراق

حتى كريولانسْ
يحسدُ كريولانسْ،
ويرى كريولانسْ
أبشعَ من كريولانسْ.

وجوه

وجهٌ يتعرَّقُ في ماءِ المرآةْ.
أَعَلامةُ تفكيرٍ هذي،
أَمْ رَهَقٍ،
أَمْ خوفٍ من حدثٍ آتْ؟

وجهٌ يتقلَّبُ في ماءِ المرآةْ.
أعلامةُ تدجيلٍ هذي،
أَمْ ترفٍ، أَمْ خرفٍ،
أَمْ غشٍّ يُخفي عاهاتْ؟

وجهٌ يتلألأ في ماءِ المرآة،
أعلامةُ حسنٍ هذي،
أَمْ فرحٍ، أَمْ نزقٍ،
أَمْ حبٍّ يُزهرُ في الوَجَنات؟

لا بدَّ إذنْ من أُمبرتو إيكو،
أو رولانْ بارتْ،
أو بضعةِ قرّاءِ علاماتْ،
و مرايا تُقرأ في الخلواتْ.

ثمة وقت

هل ثمة وقتٌ للنزهةِ في جوفِ الحوتْ؟
هل يونسُ حيًّا ما زالَ، وأبوابُ الملكوتْ
تتفتّحُ بدموعٍ ورجاءٍ؟ هل يقفُ التابوتْ
بالميْت، وينتظرُ الإذنَ ليغشى الحُجُراتْ،
ويحدِّقُ في عينِ المرآةْ؟
لمَ لا؟ ثمةَ أوقاتْ:
وقتٌ للأصلِ وللصورةِ،
وقتٌ للزينةِ والفرجةِ،
وقتٌ لطريفِ النزَواتْ،
وقتٌ لجميعِ الآهاتْ.

مرآة النفس

مَنْ كَسرَ تلكَ المرآة؟
أنتَ؟
لماذا؟
حسنٌ.. أَحسبُني أدركتْ!
حَدِّقْ في تلكَ المرآةِ إذن..
حَدِّقْ!
هل فيها غيرُكَ أنتْ؟
هاتانِ هما عيناكْ
وجبينُكَ هذا، شَعرُكَ، أُذناكْ،
أنفُكَ، شفتاكْ..
هو وجهُكَ، لا وجه سواكْ.
أَوَكنتَ تريد
أن يغسلَه ماءُ المرآة
كي يبدوَ أجملَ، أو أفضلَ، أو..
لا تغضبْ،
ما هذي الصورةُ إلاّ من صنعِكَ أنتْ.
مفزِعةٌ؟
لتكنْ،
لكنكَ أنتْ!
عجبًا..
أتحاولُ محوَ الصورةِ ثانيةً؟!
لا تفعلْ.
فالصورةُ باقيةٌ
وكذلكَ سيماؤك أنتْ.
كسِّرْ مرآتكَ إنْ شئتْ
أو جرّبْ مرآةً أخرى،
أو أخرى،
فالأمرُ سواءْ.

وهناكَ مرايا ومرايا
تختزنُ الصورةَ خلفَ الأضواءْ،
تَظهرْ لكَ إنْ تنظرْ فيها
وتحدِّقْ فيكَ بلا استحياءْ.

مرآة الآخر

صورةُ مَنْ في تلكَ المرآةْ؟
صورتُه؟
أَمْ صورةُ آخرَ يُشْبِهه؟
أَمْ صورةُ تمثالٍ من شمعٍ أم دمعٍ؟
أَمْ صورةُ شبحٍ؟
أَمْ هو.. هو من دونِ الهالاتْ؟
صورةُ مَنْ في تلكَ المرآةْ؟
صورتُه؟
هل كانَ هنا؟
منذُ متى؟
قبلَ مراسيمِ التعيينْ؟
هل نسيَ الصورةَ، أَمْ أهملها
كي يذهبَ للحفلةِ من دونِ قرينْ؟
ها.. صورتُه تلكَ إذنْ
وعليها سيماءُ التدجينْ
وانزاحتْ عنها الأصباغُ،
وتهاوتْ، في الزحمةِ، أوراقُ التينْ.

ها أنتَ ترى كم في المرآة
من صورٍ شتّى لوجوهٍ في شتّى الحالاتْ.

عينُ المرآةْ
ذاكرةٌ صاحيةٌ
لوجوهٍ مرّتْ،
ووجوهٍ قرّتْ،
ووجوهٍ قد تأتي في زمنٍ آتْ.

عينُ المرآة
لا تنسى أحداً،
أو تهملُ أحداً،
بل تخزنُ ما تخزنُ من صورٍ
دونَ استثناءْ،
منذ رأى أوّلُ إنسانٍ صورتَه في الماءْ
وتَعشَّقَها،
منذُ تبجّحتِ الحسناءْ
بمزايا فتنتها ودَهَتها الخُيَلاء
منذُ تزيّنَ بالأدهانِ مذيعٌ
قبلَ قراءتهِ الأنباء.

عينُ المرآةْ
ليستْ مصفاةْ
لدموعٍ سالتْ،
ورؤوسٍ مالتْ،
ووجوهٍ شاهتْ من فرطِ الإعياءْ.

عينُ المرآةْ
لا تسألُ عن حيٍّ أو مَيْتٍ
أو غادٍ في الموكبِ أو آتْ.

مرآة الماء

في رحمِ الماءْ
كانَ الإنسانْ
فاتخذَ الماءْ
مرآةً يتطلّعُ فيها،
ليرى صورتَه حيناً،
أو صورَ الأشياء.
لكنَّ الماء
لا يظهرُ إلاّ أقنعةً
زاهيةً، كحريرٍ يتموّجُ، يَنْسجهُ إبليسْ
كي يُغْوي نرسيسْ
بكتابةِ ما يهوى في صُحفِ الماءْ.

الصورةُ في الماء
ليستْ جنيًّا، أو شبحًا،
أو وهمًا يصنعه الشعراء
ثاويةٌ في العمقِ السريِّ،
منزّهةٌ من كلِّ رياءْ.
يَعْرفها الجوّابونْ
والصادةُ والبحّارونْ
والمنتحرونْ
وجميعُ الفقراء.
لا تظهرُ إلاّ في وقفةِ صدقٍ،
أو زهدٍ،
أو نوبةِ خوفٍ،
أو إغماءْ،
تَمْرقُ كالطيفِ إذا أومضَ
في لحظةِ إغفاء.

مرآة الحائط

يبنونَ الحيطانْ
في بابلَ،
في أثيكا،
في روما،
في أقصى الصينْ
أو مدنِ المعدنِ في القرنِ العشرين،
لتكونَ حصونًا
وبروجًا،
ومراصدَ إنذارْ
وحواجزَ أنظارْ
وشواهدَ جبروتٍ
وسدودَ متاهاتٍ
ومحافلَ أسرارْ.
يبنونَ..
ويُعلونَ البنيانْ
في كلِّ مكانْ
في كلِّ زمانْ،
والحائطُ ليس سوى مشكاة
والحائطُ ليس سوى مرآة
قد تبدو صمّاء
قد تبدو عمياء
لكنني أرى فيها كلَّ الأشياء
وأراني، أحيانًا،
أَحْلق ذقني،
أو أَعْقدُ ربطةَ عنقي،
أو أسألُ أسئلةً حمقاء.
(هل هي حمقاء؟)
أسئلةً عن بعضِ الماضينَ
وبعضِ الآتين،
فإذا بالحائطِ ذاكرةٌ
تَحْفظُ آلافَ الأسماء
وتدوِّنُ آثارَ الأمواتِ
وآثارَ الأحياء
وتسفُّ غبارَ الماشين
وتعبُّ صريرَ العرباتْ
وتزقُّ نقوشَ الأطفالِ
ونبضَ العشّاقِ
وتهجو الساسةَ والزعماء.
وتحدِّثُ عن شهداءَ،
ومغدورينَ،
وملعونينَ،
ومحشورينَ مع الشهداء.
أو تَنْقلُ موعظةً
أو تَلْعنُ خطباء،
أو تَحْملُ أفئدةً حيرى،
أو تَقْطرُ شهوات.
أتكونُ مدنُ القرنِ الحادي والعشرين
أو مدنُ القرنِ الثاني والعشرين
مدنًا للإنسانْ؟

مدنًا لا أسوارَ لها أو حيطانْ
مدنًا من ماء
من شمسٍ وهواء
من شجرٍ
من ثمرٍ..
مدنًا للأطفالِ وللعشّاقِ
وللبشرِ السعداء؟
هل يتركُ هذا الشيطانْ
أعباءَ وظيفته؟
هل يتصالحُ قابيلُ وهابيلُ،
وتقتسمُ الذؤبانُ مع الحملانْ
كلأَ البرّية؟
هل يغدو الذئبُ نباتيّاً،
ويكفُّ القيصرُ
عن إبلاغِ رسالته للعالمِ
ويكونُ العالمُ من دونِ حروبٍ وجيوشْ؟

أسئلةٌ لم تأكلْها الجرذانْ
أسئلةٌ يعرفها الحائطُ،
يسمعها منذ بعيدِ الأزمانْ
ورآها تكتبُ في صفحتهِ
بيدِ الإنسانْ،
ورأى الإنسانْ
يَحْفظُها في صحفٍ ومسلاّتٍ
وشرائعِ أديان.
لكنَّ الأبيضَ والأسودَ
وجهانِ له،
وله اسمانْ،
قابيلُ وهابيلُ.
فهو الإنسان
في حينٍ،
وهو الشيطان
في حينٍ آخرَ.
والحائطُ مشكاة
والحائطُ مرآة
ومسلّةُ أحداثٍ شتّى
وصحيفة أهواء.

لافتة

يبقى الإنسانْ
غابةَ حيوانْ
في نفسٍ واحدةٍ مرهقةٍ
وفؤادٍ حيرانْ.

خروج

أخرجُ من مرآتي
كالميتِ يخرجُ من قبرٍ مفتوح
أمشي مشبوبًا بنشيدِ الروح
أصنعُ أدواتي
أَنْفضُ أحزاني
وأتابعُ سيري في كلِّ فضاء.
ما أوسعَ خطواتي،
ما أقوى أثري الباقي في نسغِ الأشياء.
لاشيءَ يجرّدُها مني
لا شيءَ يحوّلها عني
لي بصمةُ إبهامٍ حتّى في الماء
لي رائحةٌ في كلِّ رياح
لي صوتٌ يتردّدُ حتى في الصمتْ
لي أثرٌ في كلَّ طريق
لي لهبٌ في كلِّ حريق
لي قلبٌ يَنْبضُ في عرقِ الموتْ.
فأنا وجميعُ الأشياء،
وأنا وجميعُ الأسماء،
نبقى شركاء..
نبقى شركاء.

بغداد